



المحرر

مما قرأت

كيف صار النحو عائقاً أمام الكتابة؟ المبتدأ نموذجاً

لستُ من المغرمين بالنحو العربي. خضتُ محاولاتٍ عديدة، لكنّ جميعها باءت بالفشل؛ ليس لأنّ النحو صعبٌ ومعقّد، وهو كذلك، بل لأنّه عند حدٍّ معيّن، يصبح لا طائل من ورائه. من الجيد أن تتعلّمه، لكنه لا يفيدك كثيراً في حياتك بوصفك كاتباً. الحقّ، أن النحو العربي لم يبدأ علماً، بل بدأ مشكلةً؛ مشكلةً فهم. بدأ داخل [...]

بقلم رشاد عبد القادر · ٢٩ آذار ٢٠٢٦ · قراءة في ١٦ دقيقة

ج. آ. بيكر

في هذه اللحظة بالذات، بدأت اللغة تتحول من مادة تُستعمل إلى مادة تُفسَّر؛ لا تفسيراً دلاليّاً كما كان في البداية، أو كما فعل الكوفيون، بل تفسيراً بنيوياً. ثم جاءت اللحظة الحاسمة: محاولة بناء نظام كامل، وهنا برزت البصرة.

ما فعله سيبويه في البصرة لم يكن مجرد جمع لهذه القواعد، بل محاولة لإغلاق النظام؛ أي جعل اللغة قابلة للتفسير الكامل داخل شبكة من العلاقات الداخلية: هذا يرفع، وذاك ينصب، وهذا يتعدى، وذاك يُحذف، وهذا يُقدَّر. لم يعد هناك مكان للصدفة أو للسليقة وحدها. كل شيء يجب أن يكون له موقع داخل النظام.

وهكذا انفصل المبني عن المعنى، على النحو الذي لم يكن مألوفاً من قبل. لكن هذه الخطوة تحمل في داخلها بذرة التعقيد الهائل؛ لأنك عندما تقرر أن كل شيء له تفسير، فإنك تُلزم نفسك بتفسير حتى ما لا يحتاج إلى تفسير. خذ مثلاً بسيطاً: الجملة التي تُقال: العرب قالوها هكذا.

في النظام الجديد، هذا الجواب لم يعد كافياً. صار لا بد من السؤال: لماذا قالوها هكذا؟ ما العامل؟ ما العلة؟ هل يمكن القياس عليها؟ وإذا لم يمكن، فلماذا؟

كل سؤال من هذا النوع لا يُغلق، بل يفتح سؤالاً آخر. وهكذا تبدأ السلسلة: قاعدة «» استثناء «» تعليل «» تعليل للتعليل «» تقسيم «» تقسيم للتقسيم.

وهنا لا يكون التعقيد نتيجة خطأ، بل نتيجة منطق داخلي بنيوي صارم.

إذن، الفرق بين الكوفة والبصرة ليس مجرد خلافاً صغيرة بين مدرستين متشابهتين، بل بين طريقتين مختلفتين في النظر إلى اللغة: فالكوفة أقرب إلى المعنى، وأقرب إلى التفسير، وأقرب إلى القراءات، وأقرب إلى التراث الأقدم، بينما البصرة، لا سبباً عند سيبويه، أقرب إلى التحليل البنيوي، وأقرب إلى التجريد، وأقرب إلى بناء جهاز نظري مستقل.

وحاولت كتب التراجم والطبقات والنحو اللاحقة أن تقلل من إسهام القراء في نشأة النحو. وكان لسان حالها يقول: إذا كانت الكوفة متصلة بالقراء، والقراء ليسوا علماء لغة حقيقيين، فالكوفة إذن أضعف علمياً. لقد أعادوا بناء تاريخ النحو بطريقة فضّلت البصرة وهماشت دور القراء.

لكن في الواقع، كان القراء فعلاً مؤثرين، وإلا لما احتاجت المصادر المتأخرة إلى محاربتهم أو تقليل شأنهم. أي إنّ تهميشهم في الرواية المتأخرة عن النحو ليس دليلاً على غيابهم، بل قد يكون دليلاً على قوة حضورهم القديم.

الحقيقة أنّ سيبويه لم يكن مجرد جامع لما قبله، بل أحدث قطيعة كبيرة. لم يعد هدفه الأساسي تفسير القرآن، ولم يعد يشرح اللغة فقط لفهم النص، بل صار هدفه تحليل الوقائع اللغوية نفسها؛ أي تحويل اللغة إلى موضوع علم قائم بذاته.

فاللغة عند سيبويه أصبحت نظاماً له علاقات، ووظائف، ورُتب، وأبواب، وعلل، وقياس، وبنية داخلية. وليس المعنى أن سيبويه ظهر من فراغ، بل

الحق، أن النحو العربي لم يبدأ علماً، بل بدأ مشكلة؛ مشكلة فهم. بدأ داخل التفسير والقراءات وشرح ألفاظ القرآن. ففي اللحظة التي أصبح فيها النصّ القرآني محور الحياة الدينية والفكرية، لم تكن اللغة موضوعاً مستقلاً، بل كانت شيئاً يُستخدم لفهم ذلك النص. لم يكن أحد يسأل: كيف تعمل اللغة؟ بل كان السؤال الوحيد: ماذا تعني هذه الآية؟ كيف تُقرأ؟ ولماذا اختلفت القراءة؟ وأيّها أدقّ في الدلالة؟

في هذه المرحلة، لم تكن هناك حاجة إلى بناء قواعد عامة. كان يكفي أن تُفسَّر كل حالة في سياقها. فإذا وُجدت عبارة غامضة، فُسِّرت، وإذا ظهرت قراءة مختلفة، سُرحت. كانت اللغة هنا تُعالج موضعياً، لا نظرياً. ولذلك كانت المصطلحات قليلة، مرنة، وغير مستقرة، لأنها لم تكن جزءاً من نظام، بل أدوات مساعدة تُستعمل وتُترك. وقد تطور هذا التقليد، في المقام الأول، في الكوفة.

وهذا على خلاف التصور الشائع القائل إنه كان هناك منذ البداية «مدرستان» واضحتان: بصرة وكوفة. وأن النحو كان علماً ناضجاً مبكراً، وأن تطوره كان يسير في خط مستقيم من أبي الأسود إلى سيبويه ثم من بعده، وأن البصرة كانت تمثل العلم الصحيح، وأن الكوفة أقل قيمة. هذه الصورة صنعتها المصادر المتأخرة إلى حد كبير، ولا تعكس الواقع المبكر بدقة.

أي إنّ النحو في البداية لم يكن «نحواً» بالمعنى المتأخر، بل كان اهتماماً بالنص القرآني: كيف يُفهم؟ كيف تُشرح ألفاظه؟ كيف تُبين معانيه؟ كيف تُفهم وجوه القراءة فيه؟

في تلك المرحلة، لم تكن العلوم منفصلة كما صارت لاحقاً. لم يكن هناك حدّ صارم بين: التفسير، والقراءة، واللغة، والأخبار، والفقه، والعقيدة، وشرح الألفاظ، والنحو. بل كانت هذه كلها متداخلة داخل جهد واحد هدفه الأساسي: فهم كلام الله.

وكثيراً من المصطلحات التي نعدّها لاحقاً «نحوية» بدأت في الأصل كلماتٍ عادية غير تقنية استعملها المفسرون والقراء في شرح النص، مثل ألفاظ من نوع: نعت، وخبر، وصلة، وبدل، واستفهام، وماضي، ومستقبل. وهذه لم تكن، في أول أمرها، جزءاً من جهاز علمي صارم، بل ألفاظاً تفسيرية مرنة تُستخدم بقدر ما يخدم المعنى.

إذن، لم يكن المنشأ الأول علم اللغة لذاته، إنما خدمة النص.

ومع أن الكوفة احتفظت بصلات أوثق بهذا الأصل التفسيري، فإن طريقتها في التعامل مع اللغة واجهت مشكلة مع مرور الوقت. فكلما كثرت الحالات، وكثرت القراءات، وكثر الداخلون في اللغة من غير أهلها، لم يعد ممكناً الاكتفاء بالشرح الجزئي. صار هناك ضغط خفي يدفع نحو شيء آخر: نحو التعميم. فبدل أن تفسر كل جملة على حدة، أصبح من الأسهل أن تقول: هذه قاعدة، وما يحدث هنا مثال عليها.

هنا تبدأ النقطة الأولى نحو التعقيد، لكنها لا تظهر بعد بوصفها تعقيداً، بل بوصفها اختصاراً للجهد. القاعدة تُغني عن عشرات الشروح. لكن كل قاعدة تفتح باباً جديداً: إذا كانت هذه قاعدة، فماذا نفعل بالاستثناء؟ وإذا وُجد استثناء، هل هو حقيقي أم له تفسير؟ وإذا كان له تفسير، فما هو؟

إن ما فعله كان أكبر بكثير من مجرد تطوير بسيط لما كان قبله.

ثم إنَّ عاملاً آخر دخل وزاد الأمر تعقيداً وتوزّماً: البيئة العلمية.

حين أصبح النحو علماً، لم يعد مجرد وسيلة، بل صار مجالاً للتميّز. كل نحوي لا يريد فقط أن يشرح، بل أن يضيف؛ أن يأتي بتفسير أدق، أو تقسيم جديد، أو مصطلح لم يُستخدم من قبل. ليس بدافع المال وحده، بل بدافع المكانة: أن يكون له رأي، وأن يُنسب إليه مذهب، وأن يُذكر اسمه في السلسلة.

لكن هذا التنافس لا يخلق التعقيد من الصفر، بل يعمل كجهاز مسرّع. فكل مفهوم موجود يُعاد تفريعه، وكل قاعدة تُعاد صياغتها، وكل استثناء يُعاد تأويله. ومع مرور الزمن، لا تُحذف الطبقات القديمة، بل تبقى، وتُضاف فوقها طبقات جديدة.

والنتيجة أننا لا نتعامل اليوم مع نحو واحد، بل مع تاريخ متراكم من المحاولات.

في هذه اللحظة، يفقد النحو علاقته الأولى باللغة كما تُستعمل؛ لأن اللغة في الاستعمال لا تحتاج إلى كل هذا. الجملة تُبنى بدافع المعنى، والإيقاع، والسياق. أما النحو، فقد أصبح يلاحق الجملة بعد أن تُقال، ليعيد تفسيرها داخل نظامه.

وهنا يظهر التوتر الذي نحس به في الكتابة.

في الكتابة، نبني الجملة من الداخل: من إحساسها، ومن حركتها، ومن موقع كلماتها في الزمن. بينما النحو يأتي من الخارج: يسأل عن مواقع ثابتة، وعلاقات محددة، وتعريفات مغلقة.

لذلك يبدو لي أحياناً هذا النحو ساذجاً؛ لأنه يقدّم تفسيراً شكلياً لشيء أُنتج أصلاً بطريقة غير شكلية. والأهم من ذلك أن النحو، في صورته المتأخرة، لا يهدف إلى مساعدتنا على الكتابة، بل إلى ضبط ما كُتب. هو علم يُغلق، لا علم يفتح.

من هنا، لا يكون الحل في رفض النحو، ولا في تبسيطه السطحي، بل في إعادة وضعه في مكانه الصحيح داخل عملية الكتابة.

أن نفصل بين مستويين لعملية واحدة:

مستوى يُعنى بصحة الجملة، وهذا مكانه النحو،

ومستوى يُعنى بقوة الجملة، وهذا مكانه الكتابة.

وحين نعود إلى الجملة من هذا الباب، لن نحتاج إلى هدم النحو، بل إلى تجاوزه مؤقتاً: أن نكتب أولاً، ثم ننظر بعد ذلك إن كانت الجملة تنكسر في موضع ما؛ لا لنُعربها، بل لنُصلح الكسر.

بهذا المعنى، فإن ما أحاول فعله في كتابي: أدوات كتابة القصة، وكيف تسرد قصة؟ وفي كتاب جديد قادم، ليس خروجاً على اللغة، بل عودة إلى لحظة سابقة في تاريخها: اللحظة التي كانت فيها الجملة تُبنى لفهم وتؤثّر، لا لفُفّر داخل نظام.

وهذه، في النهاية، ليست ابتداءً في اللغة؛ إنما قراءة مختلفة لمسار طويل

انتهى بنا إلى مكان لم يُصمّم أصلاً للكتابة. قراءة تريد العودة إلى اللغة في أثناء الكتابة، لا بعدها.

ولأن هذا الكلام يبقى نظرياً ما لم يُختبر داخل نص حيّ، فالأجدر أن نأخذ مفهوماً نحوياً بسيطاً، ونرى كيف يعمل داخل الكتابة نفسها.

لتوضيح ذلك، دعنا نأخذ واحداً من أبسط المفاهيم في النحو، وهو: المبتدأ.

السحب المنخفضة ربضت طوال اليوم فوق المستنقعات، ومطرٌ خفيف يذروه البحر. كان الطين عميقاً في المسالك، وعلى امتداد الجدار البحري. طينٌ كثيف، مَغْرِيّ، كأنه طلاء، طينٌ رَدِغٌ دبق، كأنه يتبرعم في المستنقع كما يتبرعم الفطر، طينٌ أخبطوطي، يتشبث ويلتصق، يسحق ويشفط، طينٌ رَلَق، أملس، خادع كأنه زيت، طينٌ آسن، طينٌ شرير، طينٌ في الثياب، في الشَّعر، في العينين. طينٌ في العظم. على الساحل الشرقي في الشتاء، سواء أكنت فوق حظ المد أم تحته، يمشي الإنسان إمّا في الماء أو في الطين. لا أرض جافة. الطين عالِمٌ آخر، ومع الوقت، يألفه المرء ويحبّه. أن تكون كطائر خائض للمياه، لا يسعد إلا عند حواف العالم، حيث يلتقي الياابس بالماء، حيث لا ظلّ، ولا مكان يختبئ فيه الخوف.

المبتدآت لا حظ كيف أن تفسير النحو التقليدي للمبتدأ، لا يستطيع شرح قوة هذه الجمل

تكثيف سلسلة «طين» باستنتاج قاصع

هذه الجملة هي انقلاب النص. فكل ما قبلها كان يبيّن صورة الطين عدواً أو عبثاً؛ وهنا يُعلن أنه عالم

تصعد الجملة من المادي إلى الوجودي

مقطع من «الشاهين» / ج. آ. بيكر (1967)

ولنتناول عبر هذا النص، وهو واحد من أبهى نماذج الكتابة عن الطبيعة و Nature Writing في كتاب «الشاهين» (1967) The Peregrine. لا يكتفي الكاتب، ج. آ. بيكر، بالمراقبة، بل يذهب إلى حدّ التماهي. فمن الخريف إلى الربيع، يتتبع بيكر زوجاً من صقور الشاهين عبر سهول «الفن» المستوية في شرق إنكلترا، مراقباً حركتها اليومية بالحاجّ يكاد يكون هوسياً: في طيرانها، وصيدها، وانقضاضها، واقتراسها، وسكونها. غير أن فرادة التجربة لا تكمن في دقّة الملاحظة وحدها، بل في ذلك الامتزاج النادر بين الصرامة والوصف الشعري، حيث تتحوّل التفاصيل إلى لغة نابضة، ويبدأ الإحساس بالذات الإنسانية في التلاشي تدريجياً، ليحلّ محلّه وعي آخر، غريب وصلب، هو وعي الصقر نفسه. لحظة عبور وتسامي في أن ترى الطبيعة من داخلها، وفي أن تصف الكائن إلى أن تسكنه.

السحب المنخفضة ربضت طوال اليوم فوق المستنقعات، ومطرٌ خفيف يذروه البحر. كان الطين عميقاً في المسالك، وعلى امتداد الجدار البحري. طينٌ كثيف، مَغْرِيّ، كأنه طلاء، طينٌ رَدِغٌ دبق، كأنه يتبرعم في المستنقع كما يتبرعم الفطر، طينٌ

حين تبدأ الجملة الاسمية بالمبتدأ، علماً أن هذا هو موضعه الأصلي في الترتيب النحوي، فأنت في حقيقة الأمر لا تفعل شيئاً محايداً. أنت تختار أن تضع هذا الاسم في الصدارة، وهذه الصدارة تفعل فعلها.

ومع أنني لا أستسيغ تصنيفات النحويين التقليدية لأنها تضع اللغة في قوالب، واللغة أعقد من ذلك، فإنهم يرون أن الصدارة تُشوّق، أو تُعجل المسرّة أو المساءة، أو تُعظم، أو تُحقّر، أو تُستلذ بالذِكر، أو تفتح الباب لخبر طويل متشعب.

وربما لن تجد من بين هذه الأغراض البلاغية كلها، ما ينطبق على المبتدآت في المقتطف، إلا إذا ألويت عنق لغة النص لتتوافق مع هذا الغرض أو ذاك. وستجد أنك على الأرجح قد استمتعت بقراءة النص دون أن تفكر في غرض من هذه الأغراض التي قال بها النحويون.

هذا لا يعني أنها غير موجودة. لكنها لا تغطي الطاقة كلها التي يبثها استخدام المبتدأ في المقتطف السابق.

ستجد مَنْ يحتاج بصدارة المبتدأ وأغراضه البلاغية في هاتين الجملتين المعطوفتين:

السحب المنخفضة ربضت طوال اليوم فوق المستنقعات،
ومطرٌ خفيف يذروه البحر.

فتركيباً: جملتان معطوفتان. الأولى: «السحب المنخفضة» مبتدأ معرف مقدّم، «ربضت» فعل ماضٍ، والجملة الفعلية في موضع الخبر. الثانية: «مطرٌ» مبتدأ نكرة، «يذروه البحر» جملة فعلية في موضع الخبر، و«البحر» فاعل.

ودلالة: صدارة «السحب المنخفضة» — معروفة بالالف واللام — تُعلن الثقل فوراً. القارئ يرى السماء أولاً، مثقلة، رابضة، قبل أن يرى الأرض. و«ربضت» فعل يحمل صورة الكائن الذي جثم ولا ينوي المغادرة، ليس سحاباً عابراً بل مقيماً. ثم يأتي «مطرٌ خفيف يذروه البحر»، والبحر هنا فاعل بإرادة، ينثر المطر نثراً كما تنثر اليد البذور.

لكن الأثر البلاغي هنا لا يصدر عن صدارة المبتدأ وحدها، بل عن شبكة عناصر تعمل معاً: ثقل السحب، وخفة المطر المذرو، والفعل الذي يثبت الصورة، والزمن الذي يمدها، والمكان الذي يضاعف أثرها. هذا التوتر هو المفتاح.

وقد يُقال إن تقديم «السحب المنخفضة» يحقق غرض التعجيل بالمساءة، لكن هذا التفسير يظل قاصراً؛ لأن الإحساس بالثقل لا يأتي من موقع الكلمة وحده، بل من مادتها، ومن الفعل الذي يثبتها في المكان، ومن الزمن الذي يمدها، ومن المكان الذي يضاعف أثرها.

فالمبتدأ هنا لا يصنع المعنى، بل يكشفه. أما ما يصنع الأثر فعلاً، فهو التقاء هذه العناصر كلها في لحظة واحدة، ثم انكسارها في الجملة التالية: «مطرٌ خفيف يذروه البحر».

ويضرب النحويون هذين المثالين:

أخطبوطي، يتشبث ويلتصق، يسحق ويشفط، طينٌ رَلِق، أملس، خادع كأنه زيت، طينٌ آسن، طينٌ شرير، طينٌ في الثياب، في الشَّعر، في العينين. طينٌ في العظم. على الساحل الشرقي في الشتاء، سواء أكنت فوق خطّ المدّ أم تحته، يمشي الإنسان إمّا في الماء أو في الطين. لا أرض جافة. الطين عالمٌ آخر، ومع الوقت، يألفه المرء ويحبّه. أن تكون كطائر خائض للمياه، لا يسعد إلا عند حوافّ العالم، حيث يلتقي اليابس بالماء، حيث لا ظلّ، ولا مكان يختبئ فيه الخوف.

All day the low clouds lay above the marshes and thin rain drifted in from the sea. Mud was deep in the lanes and along the sea-wall; thick ochre mud, like paint; oozing glutinous mud that seemed to sprout on the marsh, like fungus; octopus mud that clutched and clung and squelched and sucked; slippery mud, smooth and treacherous as oil; mud stagnant; mud evil; mud in the clothes, in the hair, in the eyes; mud to the bone. On the east coast in winter, above or below the tide-line, man walks in water or in mud; there is no dry land. Mud is another element. One comes to love it, to be like a wading bird, happy only at the edges of the world where land and water meet, where there is no shade and nowhere for fear to hide.

جوهر الكتابة عن الطبيعة والبيئة لا يكمن في تسمية الأشياء، بل في إعادة اكتشافها. نحن، في العادة، نتعرّف إلى العالم: نقول هذه شجرة، وهذا جبل، وهذا نهر، ثم نضي. أمّا الكتابة عن الطبيعة، فتسعى إلى ما هو أبعد من التعرف؛ تسعى إلى الرؤية. أن تنظر إلى الجبل لا بوصفه جبلاً فحسب، بل بوصفه كتلة حيّة من الضوء والظل، ومن الزمن المتراكم، ومن الصمت الذي يحمل تاريخاً كاملاً. هنا تتحوّل الأشياء من أسماء مألوفة إلى طاقات كامنة. كما رأى الرسام ألبرت بيرشتات الطبيعة لا كمنظرٍ يُعرّف، بل كحضورٍ يُكتشف، وكما التقط الرسام كلود مونييه في زنايق الماء اهتزاز الضوء، لا شكل النبات، وكما رسم فنسنت فان غوخ الزهور لا كأجسام صامتة، بل كقوّة تنبض من داخلها، كذلك يفعل كاتب الطبيعة: يُنصت إلى الطاقة التي تسكن الأشياء، ثم يكتبها. وهكذا، لا يعود العالم مجرد خلفية، بل يصبح كائناً حياً يعيد إلينا دهشتنا الأولى، ويجعلنا نراه كما لو أننا نراه للمرة الأولى.

المبتدأ.. أسرارهِ أكثر من ظاهرهِ

ثمة اثنا عشر مبتدأ في المقتطف السابق، وع أضفنا الجمل الابتدائية يتضاعف العدد. بل يكاد يكون النص قائماً على «المبتدأ».

العفو عنك صدر الأمر به

مُسيلمَةُ ما يزال على قيد الحياة

وذلك لشرح التعجيل بالمسرة والمساءة.

فتركيباً: في الأولى: «العفو» مبتدأ، و«صدر الأمر به» خبر جملة فعلية. وفي الثانية: «مُسيلمَةُ» مبتدأ، و«ما يزال على قيد الحياة» خبر.

ودلالة: يصنّفان تحت «تعجيل المسرة أو المساءة». فالمبتدأ في الأولى («العفو») كلمة تحمل بشرى في ذاتها قبل أن تعرف تفاصيل الخبر، لحظة سماع «العفو» تُحدث أثراً أنفعالياً فوراً. وبالمقابل «مُسيلمَةُ» اسم يحمل وطأة سلبية عند المتلقي، فتعجيل ذكره يُعجل بالتأثير المُراد قبل اكتمال الجملة.

والأثر البلاغي هنا يوضح أن البلاغة لا تعمل فقط على مستوى الأساليب، بل على مستوى اختيار الكلمة الأولى. فالكاتب الذي يسأل: ماذا أريد أن أشعر قارئ لي لحظة افتتاح الجملة؟ ثم يختار مبتدأه بناءً على الجواب.

وستجد من يحتاج بأن استخدام مفردة «طين» التي جاءت مبتدأ سبع مرّات في صيغة النكرة مما يضيف عليها الإبهام، وبالتالي فهي تخدم غرض التشويق، جرياً على تفسيره لبيت أبي علاء المعري:

وَالَّذِي حَارَبَ الْبَرِّيَّةَ فِيهِ ... حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادٍ

فتركيباً: المبتدأ هو الاسم الموصول «الذي» مع صلته «حارب البرية فيه»، والخبر جملة «حيوانٌ مستحدثٌ من جماد».

ودلالة: المبتدأ هنا «لفظ مبهم». الموصول لا يكشف عن مدلوله مباشرة، بل يُعَلِّقُ ذهن ويدفعه إلى السؤال: ما الذي حارب فيه البرية؟ ثم يأتي الخبر كالجواب المفاجئ: الإنسان نفسه، هذا الكائن الغريب الذي نشأ من جماد فأصبح حيّاً.

والأثر البلاغي هنا أن الإبهام في المبتدأ أداة تشويق عضوية. فلو قال الشاعر «الإنسان حيوانٌ مستحدثٌ من جماد» لسقط التعجّب وانتهى الأثر. الإبهام يصنع توتراً لحظياً ينفرج عند الخبر، وهذا الانفراج هو اللحظة الجمالية.

لكنني أميل إلى السبب، وهو الإبهام، أكثر من النتيجة، وهي التشويق. فعند قراءة تكرار «طين»، لم أشعر بأنني أُشَوِّقُ بقدر ما شعرت بأن الصورة تتكوّن تدريجياً. مع كل جملة، يتكثف الطين، يقترب، يتخذ شكلاً، حتى كأنني أتعرف عليه من جديد.

طينٌ كثيف، مُعْري، كأنه طلاء، طينٌ رَدَعٌ دبق، كأنه يتبرعم في

المستنقع كما يتبرعم الفطر، طينٌ أخطبوطي، يتشبث ويلتصق، يسحق ويشفط، طينٌ رَلِق، أملس، خادع كأنه زيت، طينٌ آسن، طينٌ شير، طينٌ في الثياب، في الشَّعر، في العينين. طينٌ في العظم.

هنا لا يعمل المبتدأ بوصفه أداة تشويق، بل بوصفه محوراً تتكثف حوله التجربة. إنه لا يؤجل المعنى، بل يثبته، ثم يوشعه، ثم يعقّقه.

وقد تؤدي هذه السلسلة غرض تفصيل الخبر وتعدده، لكن بشكل استثنائي، إذ ليس الخبر فكرة واحدة تتشعب، بل الطين نفسه يتعدد ويتحول أمام عينيك. كل «طين» جديد هو وجه آخر للشيء نفسه، وهذا التعدد هو ما يجعلك تحسّ بثقل المكان حقاً.

وقد يذهب النحويون إلى تفسير تكرار الطين بالتلذذ بالذكر، كما فعل قيس بن الملوّح في ذكر ليلى مرتين في شطر واحد:

بالله يا ظبياتِ القاعِ قلنَ لنا: ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ

تركيباً: «ليلاي» مبتدأ، و«منكنَّ» متعلق بالخبر المحذوف أو شبه الجملة في موضع الخبر. والاسم «ليلى» يُكرّر في الشطر الثاني.

ودلالة: يُصنّف هذا الغرض تحت «التلذذ بالذكر»، ولا سيّما في حديث الأُحبة.

وقد يذهبون إلى الآية التي تقول:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا...﴾

فتركيباً: «محمد» مبتدأ، خبره «رسول الله». ثم تتوالى جمل متعددة كلها في حكم الخبر، أو متعلقة بالمبتدأ الثاني «والذين معه...».

ودلالة: المبتدأ «محمد» يفتح نافذة واسعة يتدفق من خلالها وصف لا ينتهي بسرعة. وهذا هو غرض «تفصيل الخبر وتعدده»: أن يُعلن المبتدأ شخصاً أو موضوعاً، ثم يمنح القارئ مساحة واسعة للتعرف عليه من زوايا متعددة.

ومن حيث الأثر البلاغي، حين تبدأ بمبتدأ واحد ثم تُتبعه بجملة خبرية متشعبة، فأنت تُعلم قارئك بأن هذا الاسم يستحق الوقوف عنده، وما يأتي بعده لن يكون بسيطاً. هذه تقنية بنائية يمكن للكاتب توظيفها كلما أراد تعميق صورة شخصية أو مفهوم.

ثم يقدم المقتطف جملة انتقالية:

على الساحل الشرقي في الشتاء، سواء أكنت فوق خط المدّ أم

وأخيراً، الجملة الختامية:

أن تكون كطائر خائض للمياه، لا يسعد إلا عند حواف العالم،
حيث يلتقي اليابس بالماء، حيث لا ظل، ولا مكان يختبئ فيه
الخوف.

تركيباً: «أن تكون» مبتدأ مصدري مؤول، خبره محذوف. ثم جملة «لا يسعد إلا عند حواف العالم» في موضع الصفة أو الحال، وتفصل جملتنا «حيث يلتقي اليابس بالماء» و«حيث لا ظل، ولا مكان يختبئ فيه الخوف» هذه الحواف.

ودلالة: المبتدأ «أن تكون»، مبهم، مفتوح على الاحتمالات، يُعلق السؤال: أن تكون ماذا؟ كيف؟ هذا الإبهام يُشبه ما قاله النص عن المبتدأ المبهم الذي يُشوّق إلى الخبر. ثم يأتي «طائر خائض للمياه»؛ كائن يعيش على الحافة، بين اليابس والماء، بين الطين والبحر، وهو بالضبط المكان الذي يصفه النص كله. «حيث لا ظل، ولا مكان يختبئ فيه الخوف»، الفضاء المكشوف الذي لا يحمي ولا يُخفي.

ومن حيث الأثر البلاغي، تصعد الجملة من المادي إلى الوجودي. فكل النص كان عن الطين والسحاب والمطر؛ لكن الختام يُحوّل هذا كله إلى سؤال عن طريقة في الوجود. المبتدأ المبهم يعمل هنا في خدمة الفكرة الكبرى: أن تكون في هذا المكان الصعب الخشن يعني أن تختار الحياة على الحافة، حيث لا وهم ولا اختباء.

إذن، ليس كون المبتدأ في الصدارة، في الترتيب النحوي الأصلي، غياباً للاختيار؛ فهو جواز، لا وجوب، ويمكن تقديمه وتأخير، ومن ثمّ فإن وضعه في هذا الموضع اختيار واعٍ يخدم غرضاً محدداً.

فالأصل في الجملة الاسمية أن يسبق المبتدأ الخبر، لكم هذا الأصل ليس حياداً، فالمبتدأ، وهو يتخذ هذا الموضع، يؤدي أغراضاً لها دلالاتها، وهي ليست بالضرورة التي حاول النحويون قولبتها. وهنا درس بالغ: القرار في المقر ليس سكوناً، بل فاعلية. فالكلمة تبث طاقتها من الموضع الذي هي فيه.

ما يمنحك إياه هذا الدرس أداة لتشخيص جملك الاسمية. قبل أن تكتب أي جملة اسمية، اسأل:

ما الكلمة التي سيرها القارئ أولاً؟

هل هذه الكلمة تخدم غرضي؟

هل يكافئ الخبر الذي أعدته هذا المبتدأ في الدلالة والأثر؟

الكاتب المتمكن لا يبدأ جملة بالكلمة التي تصادفه أولاً، بل بالكلمة التي يختارها وعياً.

والخطأ الأكثر شيوعاً هو إهمال طاقة المبتدأ؛ أي الاعتقاد بأن الجملة الاسمية محايدة ما دامت صحيحة نحوياً. فيقول الكاتب: «رجلٌ فاضلٌ جاني» من غير أن يدرك أنه الوصف «فاضل» هو ما يمنح الجملة طاقتها.

تحت، يمشي الإنسان إما في الماء أو في الطين. لا أرض جافة.

تركيباً: الجملة فعلية مسبقة بظرفين «على الساحل الشرقي» و«في الشتاء». والفعل «يمشي»، والفاعل «الإنسان».

ودلالة: بعد سلسلة «طين» المكثفة، هذه الجملة تخرج من المشهد الحسي إلى الحكم العام. «الإنسان»، لا «أنت» ولا «أنا»: تعميم يجعل الحكم قانوناً لا تجربة فردية. والظرفان في الصدارة يهدئان الإيقاع قبل أن ندخل إلى:

«لا أرض جافة».

والأثر البلاغي هنا أن هذه الجملة هي فاصل إيقاعي مقصود. بعد التراكم المتسارع، تأخذ القارئ خطوة للخلف ليرى المشهد كله، ثم تهبط عليه العبارة: «لا أرض جافة».

فتركيباً، في «لا أرض جافة»: «لا» النافية للجنس، «أرض» اسمها، «جافة» صفتها، والخبر محذوف.

ودلالة: ثلاث كلمات تُصدر حكماً نهائياً. «لا» في الصدارة، وهي نافية لا تقبل استثناء، تُعلق الباب قبل أن تنتهي الجملة: «أرض جافة»، وما كان ممكناً أصلاً، صار الآن مستحيلًا.

وقد يفسر النحويون أثرها البلاغي بتعجيل المساء. لكن قوتها ليست هنا وحدها؛ قوتها في كونها قصيرة؛ لأنها لا تحتاج إلى أكثر. كل ما قبلها كان يبني نحو هذا الحكم، وحين جاء، جاء حاداً كالسكين. وقصرها بعد الجمل المطولة، يجعلها تقع بصرياً وصوتياً كالنقطة في نهاية حجة طويلة.

ثم نصل إلى الجملة المحورية:

«الطين عالمٌ آخر، ومع الوقت، يألفه المرء ويحبّه»

تركيباً: «الطين» مبتدأ معرفة، «عالمٌ آخر» خبر نكرة. ثم جملة فعلية معطوفة «يألفه المرء ويحبّه».

ودلالة: هذه الجملة هي انقلاب النص. فكل ما قبلها كان يبني صورة الطين عدواً أو عبثاً؛ وهنا يُعلن أنه عالم. المبتدأ «الطين» المعرّف يحمل الآن ثقل كل ما مررنا به، ليس طيناً مجهولاً بل هذا الطين بعينه؛ والخبر «عالمٌ آخر» يمنحه هيبة وجودية. ثم «يألفه المرء ويحبّه» تُكمل الانقلاب: ما كان ثقيلًا صار محبوباً.

وسيكون من الظلم أن نفسر الأثر البلاغي: بغرض التشويق أو تعظيم المبتدأ فحسب. إن مركزه الحقيقي هو الدهشة: فالقارئ، بعد كل تلك الأوصاف السلبية، لا يتوقع «عالمٌ آخر». والمفاجأة في الخبر هي لحظة النص الكبرى، ولا تعمل إلا لأن المبتدأ «الطين» جاء في الصدارة حاملاً تاريخه كله في النص.

وحيث يُغفل هذا الوعي، يكتب جملاً صحيحة لكنها باهتة: تُخبر ولا تُؤثّر.

عن هذه النسخة

هذه نسخة PDF من مقالة نُشرت في موقع «المحرر». النص والصور كما هي في المقالة الأصلية.

«كيف صار النحو عائقاً أمام الكتابة؟ المبتدأ نموذجاً» — مقًا قرأت · بقلم رشاد عبد القادر · ٢٩ آذار ٢٠٢٦
almuharir.net · تاريخ السحب ١٧ تشرين الأول ٢٠٢٦